جمعية أمسيا مصر (التربية عن طريق الفن)
المشهرة برقم (٥٣٢٠) سنة ٢٠١٤
مديرية الشئون الإجتماعية بالجيزة

الأبعاد المفاهيمية للمنظرالطبيعى

إعداد

أ.د/ محسن عطية

أستاذ النقد والتذوق الفني بكلية التربية الفنية – جامعة حلوان

٢٠١٥

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأبعاد المفاهيمية للمنظر الطبيعى

صـــنف الأكـــاديمى الإيطـــالى "أندريـــه فليبيـــان" André Félibien لوحـــة "المنظر الطبيعى" (١٦٦٩) فى أدنى "التسلسل الهرمى" لأنماط الرسم ، حيث يأتى ترتيبه بعد اللوحة "التاريخية أو الأسطورية" و بعد "الصورة الشخصية " و"مشـــاهد الحياة اليومية".ومن الواضح أن الأوربيين قد ورثوا عن الإغريق هذا التقليد الـــذى يعطى الأولوية فى الرسم لصورة الإنسان،على اعتبار أنه يلعب دور البطولة فى تلك اللوحات "التاريخية أوالأسطورية " أو التى تصور"الحياة اليومية" . وإلى هـــذا التصنيف بما يحمله من وجهة نظر "ذكورية" يرجع موقف أكثر الفنانين الـــذين لا يأخذون ممارسة رسم "المناظر الطبيعية"على محمل الجد. أما الفن الصينى القديم، فعلى العكس كان يعظم قدر "المناظر الطبيعية " عندما رســـم الجبـــال والأنهـــار والأشجار، أو رسم فكرته عنها، حتى احتـــل "المنظر الطبيعـــى" قمـــة "التسلســـل الهرمى" فى تصنيف "الرسم الصينى" سواء للأماكن الحقيقية أو للأخرى الخياليـــة. ولم يكترث الفنان الصينى برسم الإنسان ضمن تلك االمنـــاظر،التى تشـــعر مـــن يشاهدها بالنفوذ عبرها والسباحة فى"فراغ كونى"مسكون بقوى الطبيعة.

ورغم إنكار بعض الفنانين كونهم يمارسون رسم "المنظر الطبيعى" إلا أن حيـــاتهم الفنية لا تخلو من مرحلة ما مارسوا فيها رسم الطبيعة .أما الآن فتعطى الأهميـــة لفكرة "المنظر الطبيعى الثقافى" كآداة مفاهيمية لتصور العالم ،ومحاولة إعادة بنائه.إذ يصور المنظر هنا كفكرة تزخر بالقيم الإنسانية، أو تنســـج قصـــة حـــول"عبقريـــة المكان"وكذلك تعطى الأهمية لقيمة إعادة تفسير العلاقة بين "الإنسان والطبيعـــة" أو بين "الطبيعة والثقافة".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبإعادة تفسير رسوم الطبيعة فى "الفن المصرى القديم " يمكن إكتشـــاف مفهـــوم قدماء المصريين عن جمال " الطبيعة "وعن المهمة الثقافية لرسوم "الطبيعة". أمـــا المنظر المرسوم على جدران مقبرة "خنوم حتب " (حاكم إقلـــيم الغـــزال – بنـــى حسن،الأسرة ١٢) فيصور قطاً برياً وسط الأحراش بطريقة تعتنى بأدق التفاصيل ذات الخطوط المنتظمة والصريحة،وبملاحظة النظام التركيبى للحيوانات والنباتات والزهور بصفاتها المتميزة. وقد حدد الفنان مسارين يوجهان عين المشـــاهد أفقيـــا وراسياً ،وبرؤية فنية مختلفة عن رؤية المنظرفى الواقع ،حيث يكون فـــى حالـــة فوضى، بحيوناته البرية وهى تجول بين الأحراش وبين عيدان البردى المتشـــابكة فى المستنقعات.

وقطعاً أراد الفنان المصرى أن يعوض بأنماطه الفنية رائعة الانتظام عن فوضـــى العالم المتوحش ومخاطره. ويمكن تفسير العنصر المفاهيمى لهذه الطريقة فى رسم الطبيعة، على أساس أن الفنان يعبرعن فكرة استعادة حكـــام "الدولـــة الوســـطى" للنظام والسلطة المركزية فى مصر، بعد فترة طويلة من الفوضى والاضـــطرابات واليأس والكفاح المسلح، التى أحلت بالبلاد فـــى عصـــرالانتقال الأول(الأســـر٧-٩).وتؤكد فكرة رسم "الطبيعة" فى أعمال الفن برؤية ثقافية حول العالم الطبيعـــى

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

،على حقيقة أن المجتمع يوجه أفكار الفنان فى إطار التقاليد الثقافيـــة– البصـــرية ،مثلما تؤكد رد فعل الفنان تجاه عصره وبيئته.

وكان الفنان المصرى القديم قد اعتاد أن يمنح مشاعره أثنـــاء رســـم الطبيعـــة تنظيماً ذهنياً، فيغير أوضاع الشكل أو يضيف إليه أو يختزل منه، تبعـــاً لمفهـــوم النفوذ عبر"الزمنى – العابر" للتوصل إلى "اللازمنى – الخالد".ولتجســـيد "الحقيقـــة الوجودية" ركز الفنان فى الرسم على الخطوط القوية والألوان الصـــريحة.وذلـــك واضح فى رسم منظر "حديقة نب أمون" (١٤٠٠قبل الميلاد)حيث تتوسط الحديقـــة بركة مستطيلة بداخلها طيور وأسماك وعيدان بردى، إلا أن كل عنصر يرى مـــن زاوية مختلفة، اختارها الفنان تبعاً لأفضل وضعية للشكل،فتظهرالأشجار مواجهـــة للمشاهد داخل البركة، وكذلك الطيور و الأسماك والنباتات، بينما ترسم البركة من أعلى . أما الأشجار فتقف جميعهاعلى الخط الذى يمثل حافة الماء. و تذكر هـــذه الطريقة لتمثيل المشهد بنوع معين من الخرائط التى تجعل الطبيعة مقروءة.

وفى الحقيقة أن طريقة الرسم من أكثر من زاوية، تزود المشاهد بأكبرعـــدد مـــن زوايا الرؤية ،التى بإعادة صياغتها ذهنياً ،يصبح فى الإمكان التوصل إلى صورة عن حقيقة الموضوعات المرسومة،دون اللجوء إلى أساليب الإيهام .وتستوجب هذه الطريقة إجراء التبسيطات الهندسية ، والمزج بين الحقيقـــة البصـــرية والحقيقـــة المعرفية.وقد استفاد الفنان "التكعيبى الحديث "من الأسلوب المصرى القديم ، حينما جمع فى لوحاته بين أكثر من زاوية رؤية فى نفس الوقت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

غير أنه ليس خلو لوحة "المنظرالطبيعى" من البشر هو ما يميزها عن باقى أنماط الرسم ، فهناك العديد من هذه المناظر التى تتضمن بشراً ،إنما المسالة تتوقف على حجمهم ووظيفتهم فى اللوحة،فيلاحظ مثلاً فى "منظر من القصر"(١٩٤٤) للفنان "حبيب جورجى"(١٨٩٢-١٩٦٤) ضآلة حجم الأشخاص،حتى ظهروا مثل مجرد إشارة إلى اتساع مساحة المشهد، مقارنة بمسطح اللوحة ،ورغم ذلك ساهموا فى التعاطف مع الأحاسيس الشاعرية والحالمة التى استحضرتها اللوحة ،بالإضافة إلى التأثير بالحالة الجوية ،وبأضواء الشمس الذهبية الساحرة،وقد تسربت من بين سعفات النخيل، لتستقر على أطراف نهايات العمائر فى ساعة غسق، ولتشيع فى الفراغ الفسيح دفئاً مختلطاً بمسحة من شجن.و بهذا الأسلوب استطاع الفنان أن يصبغ المشهد بطابع أسطورى وسط فراغ لانهائى ،وأن يثير فكرة عن التواضع والبساطة.ومهمة النقاط المضيئة البعيدة،أن تجتذب عين المشاهد نحو تفاصيل صغيرة ممتعة، وتؤكد على الشكل المنظورى للوحة "المنظرالخلاوى" تبعاً للأصول المتعارف عليها .

ومن الممكن للوحة "المنظرالطبيعى" أن تفتح نقاشاً حول احتمالات إعادة فهم وتفسير المناطق المهجورة الموحشة،عندما تخضع لتخطيط "عين العقل" المهيمن على تنظيم الأشكال ،تبعاً للتعاليم الجمالية التقليدية. وتبعاً لهذه التعاليم أبرز الفنان "حبيب جورجى" النقاط التى توفر للمشهد الجاذبية،على أساس أنها بمثابة علامات جمال فى صورة "المنظر الطبيعى" المختزنة فى ذاكرته، مثل نمط"أجمة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أشجارالنخيل " المتمركز فى صدارة المشهد، لتمثيل الاتجاه الرأسى الذى ردده الفنان فى الجهة اليسرى لكى يعطى الإحساس بالعمق . أما الأشخاص فينطلقون بعيداً عن بؤرة الصورة، حتى يشكلوا خط التقاطع الذى يلج بعين المشاهد فى اتجاه العمق .وفى نفس الوقت يتوازن خط التقاطع هذا مع الاتجاهات الممتدة أفقيا التى تشكلها الأبنية مع الجدران الحجرية والسماء ومع كثبان الرمل. ولم يبالغ الفنان هنا فى الإشارة إلى العمق، حتى لا يشوش على الانتقال السهل عبر التكوين. وفى الحقيقة أن مفهوم الجمال متقلب ،طالما تتدخل فى تشكيل الرؤية الجمالية العناصرالعاطفية والخيالية، مثلما تعمل التشبيهات المستترة وأساليب "الاستعارة" على تقوية الأثر الانفعالى الذى بوسعه تحريك العاطفة والشعور.

كذلك أعاد الفنان "محمد ناجى"(١٨٨٨-١٩٥٦) تنظيم مكونات لوحة "المنظرالطبيعى" بعنوان" النيل عند كوبرى الجلاء"(١٩٤١) تبعاً للإطار المستطيل وتبعاً لفكرة العبور من الزمانى – المكانى نحو الأبدية،وتحويل "الحقائق البصرية" إلى "حقائق ذهنية". ويظهر الفنان قدرته على الجمع بين أكثر من زاوية فى نفس اللوحة، ليحيط بأكبر عدد من عناصر المشهد فى حدود الإطار،بالقدر الذى يوقظ الإحساس بثراء الطبيعة، مما استلزم تطبيق عدة مناظير لرسم النيل مع جزء من الشاطئ وأجمة من أشجار النخيل، وكذلك تظهرالقوارب الشراعية تجوب النهر،بينما فى الأفق تطل أجزاء من جبل المقطم. وتعوض الطريقة التى تجمع بين عدة زوايا رؤية فى نفس الوقت عن اختزال التدرجات الظلية فى الرسم ، مع التعبيرعن المدى الفضائى بواسطة قيم لونية صافية.وبتوزيع عناصر الصورة على نحو متعادل ، يمنح كل عنصر نفس الأهمية التى حصلت عليها باقى عناصراللوحة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

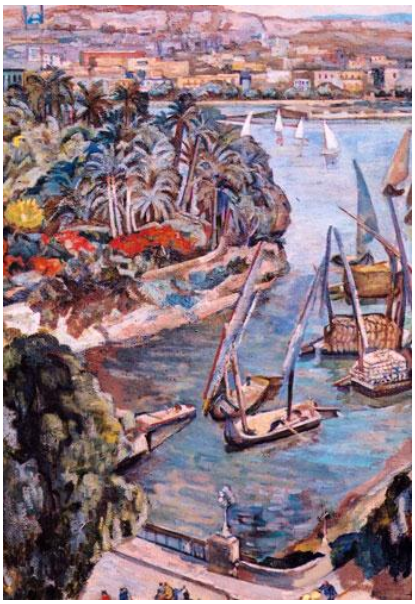

ومع تخلى الفنان فى رسم" المناظر الطبيعية "عن مبدأ التراتبية(التسلسل الهرمى) لكى يرسم بحرية أكثر،سوف يسمح للعناصرالمتناقضة فى النسق الثقافى بأن تتقابل، دون ضرورة لإخضاعها لأى تقاليد مثالية– متعالية، تؤدى إلى تجاوز تمثيل "الآخر" المختلف. أما اللوحة التى رسمها "ناجى" فإنها تحتفى بتجربة الحياة حينما تصور الشعور والاحساس على نحو ملموس، دون أن يلجأ إلى الاستعانة بحيل الإيهام لمحاكاة ما يراه فى الواقع، ودون التقيد بالمبادئ التقليدية الأكاديمية فى الرسم. فبدلاً من الإيهام يعزز الفنان الجانب المحسوس،الذى هو جسد اللوحة بألوانها وملامسها . ليست اللوحة التى مضمونها وصفى أومحاكى، وإنما اللوحة التى تجسد الفكرة والإحساس ،بل التى تهيئ للالتقاء بالجمال على نحو مباشر وعميق، من أجل إحداث الهزة التى توقظ الإحساس وتكثف الشعور بالرغبة فى الحياة.

لقد فضل الفنانون المصريون منذ بداية" الحركة الفنية الحديثة " رسم "المناظرالريفية " كنوع من الحنين والتشوق لعالم الحياة الهادئة والبريئة، للتعويض عن ضجيج حياة المدينة الحديثة.وهذا "المنظر الخلاوى" الشاعرى والهادئ وفيه السماء زاهية ومثيرة بعنوان "النيل عند الغروب فى الأقصر" (١٩٤٤) للفنان" محمود سعيد"(١٨٩٧–١٩٦٤) يتميز بغاية الخصوصية والتفرد .لقد رسم الفنان ما

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

يشبه الواحة الخيالية المثالية،ليبعث فى النفس إحساساً بالشجن والحنين إلى ذكرى الزمن الجميل بسحره الخفى، زمن الريف البسيط والوديع والصافى.

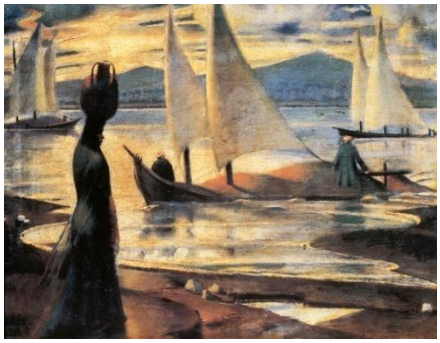

وبالطبع لم يرسم الفنان ما رآه كواقع مباشر،وإنما عبرعن المنظر بإسلوبه، فأضاف عنصراً استقاه من مخيلته، ونفذ عبر إحساساته وعواطفه الخاصة، ليخلق حقيقة جمالية جديدة ، بتأثيراتها الحسية والعاطفية وتصدق بالنسبة لهذه اللوحة الحقيقة الجمالية التى تقول" إنه لولا الخيال لبدت الطبيعة خالية من الجمال ومن التعبير". وفعلاً كاد المنظر الفخم بشاعرية ألوانه الذهبية المنسجمة و المشبعة بالعاطفة ،أن يبدو مثل لحن فى مقطوعة موسيقية، توحى بجو عجيب، وتحقق فكرة غرابة الشرق وسحره . لقد بحث الفنان فى الطبيعة الريفية عما يتفق مع خياله ومذهبه الفنى.و تستثمر الفكرة الفنية الغالبة على اللوحة " الأسطورة " مثلما تستثمرالإحساس العاطفى بالغرابة وبالفخامة،بل بالنظرة المتعالية للطبيعة التى تناقض أهداف الإنسان.

لذا عملت الرؤية الانتقائية– التهذيبية على صبغ اللوحة (النيل عند الغروب) بطابع تصويرى جليل، كرؤية تحقق وجهة نظرذاتية متعالية، تجاوزت حدود الحواس، فتغاضت عن أى تعليقات نقدية تناقض النظرة الخيالية – المثالية لخصائص المكان،حتى يسمو فوق نقاط الضعف وفوق مشاعر التوتر . إنها قطعاً رؤية خيالية تعارض الرؤية النقدية للواقع. وفى الحقيقة ان ما رغب فيه الفنان " محمود سعيد" إنما هو تجسيد وجهة نظر الأرستقراطية ومشاعرها تجاه " الريف" الذى يمثل فى مخيلتها سحر الطبيعة المعبئة بالأسرار الغامضة، والمشحونة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالبدائة الفطرية،والتى تثيرالدافع للإبداع. وعندما يتجاهل الفنان رصد مواقف العنف والتهميش االموجهة ضد الفلاحين الكادحين فى الأرض، فى ظل هيمنة ظروف غير إنسانية، وكأن عليها واجب الخضوع لإرادة أبدية مستبدة، حينئذ سوف تبدو صورتهم كطبقة دنيا عاجزة.وقطعاً هذه اللغة الشائعة التى تعكس وجهة نظر الطبقة المهيمنة ، تحدد أدوار الفلاحين من خلال دلالات سلبية ، تنسج "أسطورة الحياة الهانئة "بدلاً من تصوير المعاناة و صعوبة ظروف العيش بكرامة فى بيئة ملائمة.

لقد رسم " محمود سعيد" منظراً ريفياً حالماً فى أبهى صورة، محملة برومانسية "سامية"بسماء ذات أشعة نورانية وانعكاسات أضواء متلألئة، على صفحة مياه النيل المتماوجة الساحرة،حيث تثير القوارب بأشرعتها حنيناً وشوقا للحظات البراءة الضائعة، بجمالها الصافى وخيالها الشاعرى. ويعطى جمال مشهد الفلاحين فى الريف شعوراً بالمتعة اللذيذة ،رغم الواقع السلبى الذى أصاب البيئة والمجتمع بالتدهور،بسبب ضيق الرقعة الزراعية التى جرفت وبورت. ولم تعد "الأرض " تسد حاجات الفلاحين،لذا هجروها إلى المدينة، وقد ارتبط العيش فى" الريف" بمعنى الشقاء والفقر. ورغم كل ذلك لا تخفى على أحد عبقرية "محمود سعيد" فى تحويل صورة الواقع إلى" صورة فنية رائعة "بفضل أسلوبه فى الرسم الذى يجسد إرادته الإبداعية و يتبع سحر الفانتازيا، فيمزج التفاصيل بسمات هجينية تجمع بين الواقع والخيال.

وهناك فنانون رسموا " المنظرالطبيعى" لاستعادة الأبعاد الرمزية متعددة المعانى للعمل الفنى الذى يتناول موضوعات الطبيعة ،وأن يضعوا للمشاهد مكاناً فى العمل ،حتى يجعلوه فى علاقة شراكة دون هيمنة من طرف على آخر. والغرض من تفكيك "المنظرالطبيعى"هو تنحية هيمنة الرؤية العقلانية المتمثلة فى الأساليب الأكاديمية ، مثل "قواعد المنظور" وتتمثل فى أساليب الحداثة فى "مبادئ التصميم " وحيدية المركز. بينما يطمح "الفنان العصرى" إلى التخلى عن فكرة "الهيمنة " لكى يتجاوزالتقيد بتراتبية "التسلسل الهرمى" التقليدية .هكذا ينتهى التمييز بين "العقلانى " و"النفسى" (عاطفى) وبين "الشكلى"و"المفاهيمى"وبين "الطبيعى" و"المعرفى"

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبخاصة وأن للطبيعة أبعادها السياقية ،وتتشكل من طبقات لا حصـــر لهـــا مـــن التفسيرات.

واللوحة التى رسمها "رمسيس يونان"(١٩١٣-١٩٦٦) بعنـــوان "تكـــوين"(١٩٦٣) هى "منظرطبيعى" ليس فيه ما يشيرإلى خط فاصل بين سماء وأرض،ويغيب عنـــه البشر. وهى كذلك أقل تأطيراً ولا تتبع رؤية مركزية، وفى نفـــس الوقـــت تنبـــئ بالأفكارالجديدة عن التصدى لمركزية " الهيمنة البشرية "من جانب "الثقافة" التـــى أساسها تشيئ واستغلال الطبيعة. وبدلاً من "الهيمنة" يفكرالفنان فى "الطبيعة " كنوع من الحوار بينه وبين الصخورومياه الأنهار والعشب والحيوانات والطيور بإيماءات حرة، لدرجة يمس معها اللاوعى، ويسمح للثنائيات المتناقضة بالتعايش معاً ، دون تمييز على أساس اختلاف النوع، بين" الطبيعى" و"المعرفى"أو "المفاهيمى" أوبـــين" المذكر"و "المؤنث".حينئذ سوف ينظر إلى اللوحة كـــ"حقل" وهى الطريقـــة نفســـها التى لها جذورها اتبعت فى رسوم كهوف العصر الحجرى، حينمـــا كـــان يعطـــى الفنان اهتمامه للجانب المحسوس من العمل الفنى، ولتأثيره الطبيعى الذى يحتفـــى بالحياة بمفارقاتها وتناقضاتها كظاهرة فنية جماليـــة،تخترق إرادة الحيـــاة وعـــالم الفنان بقوة واندفاع ، كما تسمح بحرية قوى الطبيعة لتتدفق. ففى نوعية " اللوحـــة – الحقل" تندمج الأشكال و تتداخل حتى تطمس الفروق المكانية، حتى يبدو الشكل وكأنه يغرق فى المحيط.وغالباً تشتمل هذه اللوحة (حقل الرسم) على سطوح تشبه تكوينات الصخور الرسوبية، و تموجات الكثبـــان الرمليـــة، وتشـــكيلات البيئـــات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المتيبسة أو التراكمات والصخور الكلسية، أو أحراش االمستنقعات أو تجعدات الأراضى الطينية الرطبة. وهى تفترض طرح التساؤلات حول "مفاهيم حداثية " مثل تجنب أساليب السرد فى الرسم ومبادئ "وحدة التصميم المركزى" وتأكيد فكرة " التعايش" بدلاً من التمحور.

لقد واصل الفنانون المعاصرون ممارستهم لشكل" المنظرالطبيعى" ولكن باستخدام وسائط غيرتقليدية،لخلق تفسيرات للأرض بتأثيرات تصويرية ،أو بتراكيب فى المكان.واتسع تعريف "المنظرالطبيعى "يضم مفاهيم مثل "المناظر الطبيعية الحضرية" أو "الصناعية" أو"الثقافية".بل أصبح "المنظر الطبيعى" سبيلاً للتفكير فى طريقة التعامل مع الأماكن التى يعيش فيها الإنسان على الأرض، وتأثيرها عليه.وفى العادة يرتبط الإنسان بالمكان الذى يحدد هويته. وليست لوحة "المنظر الطبيعى" مجرد تسجيل لما رآه الفنان، وإنما هى التجسيد لطريقة الفنان فى استبصار ما يراه بعقله، ومنحه قيمة ما "غير مادية ". من هنا يمكن اعتبار "المنظر الطبيعى" نسقاً ثقافياً يتضمن المشاعر والذكريات حول" المكان".

ويمكن إعادة اكتشاف رسوم " المناظر الطبيعية "التى انتجها الفنانون على مر التاريخ، لاكتشاف الأفكار والذكريات التى تدور حول" المسائل الوجودية" وحول" الأرض" و"الهوية" وحول طبيعة الحياة فى المجتمع مع تعميق الإحساس بالنفس .فكل لوحة"منظر طبيعى" هى نتاج للتفاعل بين قيم ثقافية وممارسات على الأرض. مع الأخذ فى الاعتبار أن الذكريات لا تكون عادة كلها سارة وممتعة، إنما كذلك قد تكون مؤلمة. وسوف يعزز تشكيل "المنظر الطبيعى" من"الأفكار" عملية التقاء "الثقافة" مع"الطبيعة". مثلما كانت صور الطبيعة فى الإبداعات المصرية القديمة، هى السبيل للتعبيرعن المعتقدات والعواطف والذكريات(العقل والقلب) بل وعن أكثرالحقائق روحية ورمزية، وليس عن الواقع المرئى. أما "الفانتازيا الرائعة" فيمكن أن تمثل مفاهيم شخصية مثالية عن الطبيعة، ربما تكون وهمية.

ويود الفنان المعاصر وهو يمارس التعبيرعن " المنظرالطبيعى" أن يكتشف "الأرض" بتضاريسها وطبيعتها فى ضوء المواقف الأخلاقية والمفاهيمية،على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أساس مفهوم "الطبيعة" بمثابة "الآخر" الذى يكمل "الثقافة". وفى كل الأحوال لا يتفق حصرعلاقة الفنان بالطبيعة فى الحدود الضيقة ، لنمط تقليدى للوحة"المنظرالطبيعى" التقليدى، مع التوسع الذى جرى لتعريف الفن ،حتى شمل الأشكال غيرالمعتادة، مما يعرض فى قاعات الفن الحالية.ولو أنه من المتوقع لتلك الأشكال غير التقليدية من التصورات والاختيارات الفنية،ألا تحوذ قبول سوق الفن الذى لا يتصف غالباً بالجسارة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com